الفصل الثانى :

إنكـــار الـــذات

إنكار الذات

خصيصةٌ من خصائص العمرية ، ومن أهم مقوماتها ، (إنكار الذات) ، هذا الإنكار الصادق الواعى النابع من إيمان الذات بمحدودية أفقها ، وتواضع إمكانياتها ، أكبرُ معيار لاستقامة الذات ، ونزاهتها أن تصيبها آفةٌ من آفات الغرور أو الكِبْرِ أو العُجْبِ .

هذا الإنكار بمثابة سياج تحمى الذات به نفسَها من نفسِها ، فانهيار النفس لا يأتى إليها من الخارج وإنما من الداخل . وهو فى الوقت نفسه - أقوى وآصلُ وأوضحُ دليل لإثبات وجود الذاتِ .

فحينما تعلن الذات بكل صراحة عن عجزها وعن ضعفها وعن نقصها فإنها لا توصد أبوابها أن تستمد عونًا ومددًا من خارجها يجبر هذا العجز ، ويقوى هذا الضعف ، ويكمل هذا النقص .

هو استعدادٌ مخلصٌ من النفس للتقييم الدائم والمستمر وللصقل والتهذيب والتأديب.

هو رقى دائم وصعود نحو الكمال الإنسانى .

عمر هنا لا شاغل له إلا التفوق على ذاته ، من خلال المقارنة بين ذاته الإنسانية بكل نقائصها وعيوبها وأخطائها ، وبين ما يجب أن تكون عليه الذات من مقصد ربها ، أو رقابة الله عليها وحساب الله لها .

دائما الخط موصول بين ذاته فى الدنيا ، وذاته بين يدى الله فى الآخرة

بين ذاته الإنسانية التى تملك إمكانية الفعل وقدرة التصرف فى وقتها الحاضر وبين ذاته التى نفذ منها إمكانية الفعل وقدرة التصرف فى الآخرة ، وقت الحساب وليس أمامها إلا أن تتلقى حسابها وجزاءها على ما قدمتْ وأخرتْ

ومهما فعلتِ الذاتُ فإنها عاجزةٌ أبدًا أن تصل إلى درجة من درجات الإحساس بالرضا الرباني على ما فعلتْ ، هذا الشعور بالعجز هو عين الكمال الإنساني ، لأنه يدفع الذات دفعا دءوبًا ومتواصلا إلى تلمس أى درجة من درجات التوفيق إلى مراد الله .

يقول الأحنف بن قيس " كنتُ مع عمر بن الخطاب فلقيه رجلٌ فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعدنى على فلان فقد ظلمنى .... فرفع عمر درته فخفق بها رأس الرجل ، وقال له : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم مقبل عليكم حتى إذا شُغِل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه : أعدنى ... أعدنى . فانصرف الرجلُ غضبانَ أسفًا ، فقال عمر : علىَّ بالرجل فلما عاد ، ناوله مخفقته وقال له : خذ واقتص لنفسك منى . قال الرجل : لا والله ولكنى أدعها لله وانصرف ، وعدتُ مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسبُ نفسَه ويقول :

ابن الخطاب ؟ كنت وضيعًا فرفعك الله وكنت ضالا فهداك الله وكنتَ ذليلا فأعزك اللهَ ... ثم حملكَ على رقابِ الناس فجاءك رجلٌ يستعدى بك فضربتَه فماذا تقول لربك غدًا إذا أتيته ؟!! " .

لحظة ضيق تنتاب عمر من الرجل الذى جاءه على غير استعداد أو تفرغ فهو مشغولٌ بأمور أخرى أهم وأخطر ، لم يكن الرجل موفقا فى اختيار الوقت ، وكان رد عمر قاسيًا على الرجل ، لم تكن أمور الدولة قد تطورتْ بحيث يرفعُ الرجلُ مظلمتَه وينصرفُ ، ثم ينظر فيها عمرُ حينما تتهيأ ظروفه ، أو ريثما يفرغ من مشاغلِه ، ومع ذلك فقد قام بأمرين .

الأول: أنه راجع نفسه ، وما أقدم عليه من فعل ، فوجد نفسَه قد أخطأ فى حقّ الرجل ، لم يراجع نفسه كحاكم أو أمير للمؤمنين ، وإنما راجع نفسَه وحاسبها رجلا لرجل فطلب أن يأتوا له بالرجل ، فجاء ، لم يعتذر له عما بدر منه ، ولم يبحث مظلمته وإنما جنح إلى القصاص العادل .

الثانى : الاتجاه إلى الرقيب والمحاسب ، صلى ركعتين ، اتصال وثيق بالله ، ثم الاعتراف (ابن الخطاب) ثم مقارنة بين ما كان وبين ما صار عليه، كنتَ وضيعا فرفعك الله ، كنتَ ضالا فهداك الله كنتَ ذليلا فأعزك الله ، ثم الانتقال إلى الفضل والمنة الكبرى ثم (حملك على رقاب الناس) ، نتيجة هذا (فضربته) فى كل هذا ليس لديك ما يخولك أن تضرب أحدًا فالفضل بيد الله . وما كان ليدك أن تمتدَّ لتضربَ أحدًا من المسلمين

نأتى إلى تفسير دوافع كل تصرفات عمر (فماذا تقول لربك غدا إذا أتيته)

الذات الإنسانية فى مواجهة الله ... ويا لها من مواجهة !!

المرجع الوحيد لعمر موقفه أمام الله ، وإذا صح هذا الموقف ، فهو لا يعبأ بما يترتب عليه بعد ذلك ، فليس لديه اعتبارات خاصة بشخصه أو ذاته أو الآخرين الموقف والمشهد أمامه لا يوجد فيه سوى الله ، ما سوى ذلك فلا وجود له .

وهذا ما أمدَّ عمر بنوع فريد من القوة والجرأة والشجاعة لا نظير له ، وما القوة والجرأة والشجاعة إلا إسقاط لأى اعتبار وكل اعتبار ، والعمل والتفكير فى مبدأ واحد لا يتغير مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما كانت الأخطار والأهوال المحسوبة وغير المحسوبة التى ستترتب على هذا العمل . (إن عمر لا يخشى فى الله لومة لائم) فليلم اللائمون عمر ، وليشددوا فى هذا اللوم . وليقف هو فى ناحية والعالم كله فى الناحية المقابلة فإن هذا لا ينال من صلابة موقفه ، ولا يقلل من قوة يقينه ، فقد وضحت له الجادةُ واستبان له الصوابُ ، فقد يتشكك العالمُ كلُّه فى موقف من المواقف التى يقفها ، وقلما يتسرب الشكُّ أو الريبُ إلى نفس عمر ، لأن مبدأه ومنتهاه فى كل أمور هو ذات الله وهذا ما جعل الناس يخافون عمر ، بل تعدى ذلك كما قال رسول الله ﷺ : (إن الشيطانَ ليخافُ منكَ يا عمرُ)

وما الشيطانُ – فى ظننا – إلا تلك الوساوس التى تنتاب الإنسان لتبعده وتضله عن الله ، وحب النفس الغرور والعجب والتكبر وخمط الناس ، والتعالى والسير مع هوى النفس وحب العاجلة .

تلك هى البوصلة التى تحدد تصرفات عمر ، وأفعاله ، ومواقفه ، شعور عميق بفضل الله عليه ، واعتراف صادق بهذا الفضل ، مع قوة إيمان تملأ منه شهاب النفس والفؤاد ، إذا اجتمعت تلك الأمور تجعل الذات تتضاءل تتضاءل .

عن طارق بن شهاب ، قال ؛ لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ونزع موقيه فأمسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة : قد صنعتَ اليوم صنيعًا عظيما عند أهل الأرض صنعتَ كذا وكذا .

قال : فصك عمر فى صدره وقال : أوَّه ! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزَّ بغيره يذلكم الله . هنا ذات شريفة نبيلة تربى نفسها بالذل ، وإذلال الذات لنفسها هو عين الكبرياء وبؤبؤ العظمة .

وأن يقوم رجل من عامة الناس بإذلال نفسه هذا شيء يدعو للفخر ولكن لا يدعو للعجب ، وأن يقوم حاكم بإذلال نفسه بعيدًا عن أعين الناس وخفية فهذا شيء يدعو للإعجاب ولا يدعو للعَجب .

ولكن أن يقوم حاكم لأمة ظافرة ومنتصرة بإذلال نفسه على مرأى ومسمع من الناس عامدًا متعمدا فهذا شيء يدعو إلى العجب العجاب حقا .

لأن المفترض أن يقومَ الحاكمُ – أى حاكم – بتأصيل الرهبة والخوف والإجلال فى نفوس المحكومين كى لا يجترئوا عليه ولا يستهينوا به ولا يستخفوا بأمره وأظن أن هناك أجهزة مخصصةً ومجندةً لتقوم بتلك المهمة ، وهى تواصل عملها ليل نهار بدون توقف وأشد

ما يحرصُ الحكامُ عليه الاطمئنان على أن تلك الأجهزة تؤدى عملها بنجاح ، ويُنْفَق عليها بسخاء وأحيانا ببذخ لا مبرر له ، ومع ذلك قد لا توفق بعض التوفيق لأن عملها قائم على الكذب والتلفيق والتزوير فى بعض الأحيان.

عمر لم يكن فى حاجة إلى أن يجند مثل تلك الأجهزة ، ولم يكن فى حاجة إلى أن يقتطع الجزء الأكبر من أموال المسلمين للإنفاق بسفه على تلك الأجهزة ، فهو يفعل نقيض ما تفعله ، ومع ذلك يظفر بما لا تظفر به ويحقق ما تعجز عن تحقيقه فكلما أذل نفسَه وقلل من شأنه أمام الناس زادتْ رهبتُه فى قلوب الناس وعظمتْ هيبتُه ، وعلتْ مكانتهُ وهو أشد ما يكون زهدًا فى تلك الرهبة ، وإعراضًا عن تلك الهيبة ونفورًا عن تلك المكانة .

" عن محمد بن سعد يرفعه إلى عمر أنه قال : لقد رأيتنى ومالى من آكال يأكله الناس ، إلا أن لى خالات من بنى مخزوم ، فكنتُ استعذب لهم الماء فيقبضن لى القبضات من الزبيب ، ثم نزل عن المنبر فقيل ما أردت بهذا ؟

قال : إنى وجدتُ من نفسى شيئا فأردتُ أن أطأطئ منها " .

ها هو عمر قاهر الجبابرة ، محطم صولجان الأكاسرة ، ومذل كبرياء القياصرة والتى سارت سراياه لتمتد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ترفع رايات الإسلام وقواده يسجلون انتصارات تملأ الدنيا دويا ، لا يفتأ يربى نفسَه ، وما كان له أن ينهض بكل هذا لولا امتلاكه زمام نفسه ، والتحكم فيها والرقابة الواصبة عليها ، ولِمَ لا يتسنى له إذلال الجبابرة والأقوياء ، وقد بدأ بإذلال نفسه كلما أحس منها التطلع إلى الكِبر ، أو لبس لبوس الغرور والتيه ؟

" عن ابن عمر قال : صعد عمرُ المنبرَ فجلسَ ، ونُودى فى الناس الصلاة جامعة فما زالوا يردون حتى امتلأ المسجدُ فقام عمرُ فقال :

أحمدُ الله عليكم ، إنى كنتُ أؤجر نفسى بطعام بطنى ثم أصبحتُ يضرب الناس بجنبتى ليس فوقى أحد . ونزل ، فقال ابن عمر : يا أمير المؤمنين ما دعاك إلى ما قلتَ .

قال : إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها " .

يؤجر نفسه لكى يسد جوعه !! ليس هناك أدنى من ذلك وأشد فقرا وخصاصة ، ثم ليس فوقه أحد ، ويشعر ابنه بالخجل مما فعله أبوه .. وانظر ماذا يقول الابن (يا أمير المؤمنين ما دعاك إلى ما قلتَ ؟) .

إن ما تتحدث عنه عهد قد مضى ، ومضتْ أيامُه ، ولا يجب أن تذكره ولا يتذكره أحدٌ .

وانظر إلى رد عمر : (إن أباك أعجبته نفسُه فأحب أن يضعها)

هذا التواضع أو الإذلال أو التصاغر المتعمد من عمر ، لهو دليلٌ على قوة وقدرة هذا الرجل الشريف ، فكلما ساوره شيء من العظمة وأحس أن نفسَه قد تجمحُ به وتطمحُ إليه عكمها وكظمها " إنما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسه ، ومحال أن تمتلئ نفسٌ بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها فليس ذلك من معهود الطباع فى حى من الأحياء ، ولا نقصر القول على الإنسان .

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر ، فأبى أن يركب البرذون .

وهو يغالب عزة الفتح داخلا إلى الشام دخول المنتصر ، وقيل له فى ذلك فصاح بهم " خلوا سبيل جملى ! وإنما الأمر من ها هنا ، وأشار إلى السماء " (١)

١- عبقرية عمر - عباس محمود العقاد (١٤٧) .

السيادة المطلقة على النفس :

خصيصةٌ من خصائص العُمرية ، من خلال القيام بعملية إذلال دائمة ومتواصلة حتى لا يتسرب إليها إحساسٌ بالغرور والكِبْر ، وتصاب بآفة من آفات التلف والعطب فتفسد النفسُ ، وتُفسد من يتصل بها . وهذا ليس شعورًا بالدونية متأصلاً فى نفس عمر ولكنه عقيدةٌ قويةٌ فى نفسِ عمر ، إنه لن يتسنى له أن يسوس أمةً أبيةً على الخضوع ، أنفةً على الخنوع ، شموسًا على الترويض ، إلا بعد امتلاك قيادة نفسه ، وهو إذا نجح فى ذلك فلا عليه بعد ذلك من أمر الحكم وشأن الخلافة فإن الأمورَ سائرةٌ وفقَ ما يهوى ، فقد أقام الحجةَ على المحكومين حينما بدأ بنفسه وأخذها بالشدة والقسوة والإذلال .

وما يحيطُ بالحاكم من مظاهر الجاه والسيادة والسلطان ، والتصرف المطلق والتحكم فى أزِمَّة الأمور؛ كل هذا يهيئ أن تصاب نفسُ الحاكمِ بالكِبْر والغرور والعُجْب ، ومن تلك الأبوابِ يلجُ التسلطُ والبطشُ والاستبدادُ وينعزلُ الحاكمُ عن المحكومين ، ويساورُ الحاكمَ إحساسٌ وشعورٌ أنه فوق الجميع وفوق القانون ، وأن لا رادَّ لقضائه ولا معقبَ لحكمه ويظل الحاكمُ فى غيه وضلاله إلى أن يقول : (أنا ربكم الأعلى) .

وعمرُ لم يتخذ هذا المنهجَ فى تذكير نفسه وتربيتها ، والأخذ عليها فى مسالك الغرور والتكبر إلا بعد أن تولى الخلافة ، لأن مناطَ تلك الأمور هى السلطة ، وربما لم ينس عمرُ وصيةَ أبى بكر حينما حضرته الوفاةُ ، وكانت من ضمن وصاياه :(إن أول من أحذرك نفسك) .

التطبع والطبع :

الشىء العجيبَ فى هذا الأمر، إن عمر ظل يتكلفُ هذا الأمر إلى أن صار هذا طبعه وكأنه جُبِل عليه ، وأصبحتْ تلك سمةً يوسم بها ، وهذه من صفات العمرية أنه يبدأُ بالتخلقِ بالخلق ، ويتكلفُ من أمرٍ عسرًا وشدة كى يسيرَ على نهجٍ ما ويظل على هذا إلى أن يصبحَ هذا الأمرَ وكأنه فُطِرَ عليه ، وطُبِعَ عليه ، ويصبحُ خليقةً من خلائقه الأصيلة الثابتة ، لا يستطيع عنها حولا .

فهو يعلمُ أن به نقصًا فى حاجة إلى التمام والكمال ، ويدرك أن به اعوجاجًا فى حاجة إلى التقويم ، وأنه ليس بضائرٍ أن يمضى عمرٍ وبه نقص واعوجاج ، لأن ضررٍ لا يتعدى ذاته منفردًا ، ولكن حينما يتولى أمورَ الناس ، ويصبحُ حاكمًا فالأمرُ مختلفٌ ، فهذا النقصُ والاعوجاجُ سيتعدى أثرهُ إلى الرعيةِ وستصطلى بنارٍ يقول فى أول خطبة بعد أن تولى الخلافة:(اللهم إنى شديد فليِّنِّى ، وإنى ضعيف فقونى وإنى بخيل فسخِّنى) .

قد تكون تلك الشدة فى غير مكانها ، فيطلب من الله أن يلينه ، وقد يكون الضعف فى غير أوانه فليلتمس من الله أن يقويه ، وقد يكون بخيلا فيرجو من الله أن يسخيه اعترافٌ صريحٌ وصادقٌ أمامَ الناسِ من فوق المنبر، وتضرع إلى الله بإصلاح هذا الاعوجاج .

كلُّ المواقف قبل إسلام عمر وبعد إسلامه تدلُّ على قوة اعتزازٍ بنفسه وثقته فى قوته وإحساس شريف بالشموخ ، وشعور نبيل بالكبرياء كل هذا منحه إحساسًا بأنه ليس من عامة الناس ، خُلِقَ ليكون شيئًا كريمًا فى تلك الحياة علامة بارزة ، سمة مميزة ، نقطة فارقة ، حدًّا فاصلاً .

إنسان بتلك الصفات ، إذا تبوأ مقعد الحكم من الممكن أن يكون حاكمًا مستبدًّا ديكتاتوريا ، قاسيا ، متسلطا مستبدًّا بفكرٍ ورأيه وفعله . وهذا ما قاله البعض حينما

عرف أن الصديق مستخلف عمر : (استخلف علينا فظًّا غليظًا ! لو قد ملكنا كان أفظ وأغلظ) ، وقالوا للصديق (فماذا تقول لربك إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر) .

وكان الناس – ظاهريًّا – على حق ، فكل الشواهد تدل على أن عمر سيكون خليفة لا يطاق ، وحاكما لا يحتمل ، والمنطق والواقع يحكمان بذلك . وكان الصديق على حق فى اختياره لعمر رغم بعض المبغضين ، فقد قال وهو يوصى عمر : (يا عمر ! أبغضك مبغض وأحبك محب وقد ما يبغض الخير ويحب الشر) .

ولكن هؤلاء النفر الذين توقعوا من عهد عمر أن يكون عهد شدة وغلظة وحكم بالحديد والنار ، غاب عنهم الدرس الذى علمه رسول الله ﷺ لهم ، سبره لغور نفوس من حوله حينما دعا بأن يعز الإسلام بعمر ، .... إن عمر شديد وغليظ وعنيف ولكن فى جانب الحق ومن أجل الإنصاف ، فقوته قوة مبدأ نابعة من عقيدة ، ليستْ شهوة أو هوى ، أو شططا لا يقف عند حد .

عمر شديد وغليظ ... هذا لا مراءَ فيه .

وإنه متى تولى الخلافة فسيكون أشدَّ وأغلظ على الناس.. هذا لا ريب فيه

وإنه متى كان قائما على الناس سيكون الأشد والأغلظ على نفسه ... بل سيكون وقد كان – أول المبتلين بهما ... فلا أحد من الناس يختلف على هذا الأمر

أدرك عمر منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها الخلافة ، أن الجهاد ليس بينه وبين الناس ، وليس بينه وبين الولاة والقواد ، ولكنه بينه وبين نفسه وإن ميدان الجهاد ليس خارجه وإنما داخله ، وأدرك أن المنتصر – ولا بد – فى تلك الحرب هى القيم والمبادئ والخير والعدل ، وأن المنهزم هو الغرور والطمع والكبر والتسلط وهوى النفس .

وقد نجح عمر نجاحًا عظيمًا في تلك المجاهدة ، وأسلستْ نفسه قيادتها له وأصبحت تأتمر بأوامره وتنتهي عن نواهيه ، وسدَّ جميع منافذ الغرور والكبر . رغم كل هذا الرصيد الهائل والعظيم من أعماله ، والتي أعزت من شأن الإسلام كما توقع نبيه العظيم حينما ينظر عمر إلى كل أعماله وتاريخه لا يجده شيئا يستحق أن يعتمد عليه الإنسان في تحسين موقفه أمام الله أو أمام الرسول ﷺ .

" دخل عبد الرحمن على أم سلمة فقالت : سمعتُ النبي ﷺ يقول : إن من أصحابي لمن لا يراني بعد أن أموت أبدًا . قال : فخرج عبد الرحمن من عندها مذعورًا حتى دخل على عمر فقال له : اسمع ما تقول أمك فقام عمر حتى أتاها فدخل عليها فسألها ، ثم قال أنشدك بالله أمنهم أنا ؟

قالت : لا ولن أبرئ بعدك أحدًا " .

رغم أن عمر كان يدرك إدراكا لا يخالجه شك أن علاقته بالرسول - ﷺ - من نوع خاص ، عمادها الإعزاز والاحترام والتقدير والتبجيل ، وقد صرح الرسول بذلك في أكثر من موضع ، وإن مكانة عمر من قلب رسول الله ومن الإسلام مكانة سامية سموًّا كبيرًا . وأنه لم يكن يفارق نبيه ، ولم يكن يفارقه نبيه فحق لعمر أن يطمع في مكانه مميزة في الآخرة من نبيه ، كتلك التي كان عليها في الدنيا .

ولكن متى كان عمر يغتر بما قدمت يداه ؟

ومتى كان عمر يعدد ويحصي رصيده ؟

إنه كصاحب مال كثير ، لا يرى فيما حوى أي فضل ، وإنما كثرة هذا المال عبء لأنه يفرض عليه القيام بتأدية حق هذا المال ، وتأدية ما يوازيه - بل يزيد عليه- من شكر وحمد وإن هذا المال ما هو إلا ابتلاء واختبار له .